مذهبى فى النقد

من الأقوال المأثورة عن الكاتب الفرنسى الكبير «أناتول فرانس» (Anatole France) قوله «إن الناقد المجيد هو الذى يروى مغامرات روحه بين الطرائف ، ومن الأحداث المعروفة فى تاريخ النقد الفرنسى ذلك الخلاف الطريف الذى ثار بين الناقد الفرنسى القدير العلامة «برينتيير» (Brunetiere) ، من ناحية والكاتبين الكبيرين «أناتول فرانس» و «جيل ليمتر» (Ju les Lemaitre) ، وقد كان «برينتيير» ناقداً غزير العلم واسع الاطلاع ، صارما فى أحكامه ، آخذا بطرف من الثقافة العلمية ، حتى لقد حاول تطبيق مذهب النشوء والارتقاء على الأدب وطرائقه ، وأن يخضعه للأساليب العلمية ، وكان يعتقد أن النقد لا قيمة له إلا إذا كان نقداً موضوعياً ، وأن الفرق بين الأعمال الأدبية الجيدة والأعمال الأدبية الرديئة يمكن تحديده بالموازنة المنطقية والمقاييس العلمية .

وقد رد عليه «أناتول فرانس» ناقضاً مذهبه ، ومنكراً لوجود النقد الموضوعى مظهراً الشك فى موازين النقد على الإطلاق ، واستحالة إخضاع النقد لطرائق العلم ، أما «جيل ليمتر» فقد رد على «برينتيير» فى لهجة الاحترام الساخر قائلا «يبدو لى أن «المسيو برينتيير» لا يستطيع النظر فى أى عمل أدبى صغر أو كبر ، جل أو هان ، إلا إذا عرف علاقاته بأعمال أدبية أخرى تكون علاقاته المباشرة بها خلال الزمان والمكان ظاهرة له ، وهكذا على هذا النمط ، فى أقل حكم له يصدره على الأعمال الأدبية والفنية ، فلسفة كاملة للتاريخ

الأدبي ومذهب كامل من مذاهب فلسفة الجمال ، ونظرية مستوفاة من نظريات الأخلاق ، وهي موهبة رائعة !

فحينما يقرأ كتابا يمكن أن نقول إنه يمضي مفكراً في جميع الكتب التي ألفت منذ بدء العالم ، وهو لا يلمس شيئاً إلا حاول أن يلحق بنوع من الأنواع ليكون ذلك الإلحاق باقيا أبد الدهر ، وإني لمعجب بجلالة شأن مثل هذا النقد ! ولكن انظر ماذا يكلفه ويقتضيه مثل هذا النقد ، وإنه لشيء جد محزن ألّا نكون قادرين على أن نفتح كتابا دون أن نتذكر غيره من الكتب ، ودون أن نوازن بينه وبينها ! وإصدار الأحكام على الدوام معناه الحرمان من المتعة ، ولذلك لا يخالجني العجب حينما أعلم أن المسيو «برينتيير» قد أصبح غير قادر على أن يقرأ ليجد في القراءة متاعاً ، فهو يخشى أن يخدع ، بل ربما يخشى أن يقترف إثماً ، أما نحن فلا نبالي إذا أخطأنا في حب ما يدخل على قلوبنا السرور أو ما يسلي نفوسنا أو إذا كنا نضحك غدا على ما نعجب به اليوم ، فأخطاؤنا ليست لها نتائج هامة ، وليست مرتبطة بعضها بالبعض الآخر ، وإنما هي تعني حالات خاصة ، ولكن المسيو «برينتيير» إذا وقع في خطأ ، فإن خطأه سيكون رهيباً ، وذلك لأنه فضلا عن أنه لن يكون قد وجد متعة في هذا الخطأ فإن هذا الخطأ لا علاج له ولا معين على استدراكه ، وأنه سيكون خطأ شاملا غير قابل للإصلاح ، وسيكون معناه زوال كيانه برمته» .

ومضى «جيل ليمتر» على هذا النمط مظهراً العيوب الكامنة في النقد الموضوعي ، ممثلا في «برينتيير» ، مظهراً مزايا النقد الذاتي أو النقد التأثري كما كان يفضل أن يسميه ، وعنده أن النقد التأثري يكتفي بذكر الانطباعات التي يتركها الأثر الفني في النفس ، وهو مطلب هين متواضع ، ولكنه في الوقت نفسه له منافعه وفوائده ، فإنه من غير الممكن أن نذكر الأسباب التي توضح سر

الانطباعات التى تركها فى نفوسنا أى أثر من الآثار الفنية دون أن تتناول الأفكار العامة ونفرق بين الانطباعات التى حدثت فى نفوسنا وبين الانطباعات التى حدثت فى نفوس غيرنا من الناس ، ومن ثم فإن الناقد التأثرى فى الوقت الذى يصف فيه المشاعر التى قامت فى نفسه يكون فى الحقيقة قد أقام نفسه مقام المفسر والشارح لطبقة كاملة من العقول التى تشبه عقله ، وليست المذاهب الأدبية سوى تفضيلات مستترة فى الحقيقة ، ويبدو لنا من خلال ذلك أن رأى «جيل ليمتر» يطابق رأى «أناتول فرانس» .

ولكن قد يخطر لنا بعد ذلك أن نسأل الناقد الذاتى بعد أن يقول لنا إن نقده متوقف على نوع شخصيته وتجاربه وطبيعة ملكاته ونوع إحساسه وحقيقة ذوقه الخاص ، وبعد أن يذكر لنا أنه ليس هناك موازين عامة للنقد يمكن أن يرد إليها أحكامه ويستدل بها على صحتها يمكن أن نسأله بعد ذلك كله عن قيمة نقده ، ويتولى «جيل ليمتر» الإجابة على هذا السؤال فيقول : «معرفتنا بالمشاعر التى ألمت بشخص آخر خلال قراءتنا لكتابه الذى أمتعنا معناها أن نطيل أمد مشاعرنا ونقويها» . ولما وجه إليه النقد على أنه يكتفى بتحليل مشاعره تلقاء العمل الفنى بدلا من أن يحاول إصدار الحكم عليه معتمدا على المبادئ العامة لفلسفة الجمال قال : «أؤكد لكم أننى أستطيع كما يستطيع سائر الناس أن أصدر أحكاما قائمة على المبادئ لا على التأثرات ، ولكننى إذا فعلت ذلك فلن أكون مخلصاً ، ولابد لى حين ذاك من أن أقول أشياء لا أكون متأكداً منها ، فى حين أننى واثق من انطباعاتى ، ومع مراعاة جميع الاعتبارات فإننى لا أستطيع إلا أن أصف نفسى فى حالة اتصالها بالمؤلفات التى تعرض لها ؛ وهذا يمكن أن يتم بغير نزق أو غرور ، وذلك لأن فى شخصية كل منا جزءاً يمكن أن يعنى به كل إنسان ، وأنتم تقولون إن هذا ليس نقداً ، فليكن شيئاً آخر فلا يهمنى كثيراً الاسم الذى تطلقونه

على ما أكتب» .

وأريد أن أقول إن مسألة ترجيح النقد الذاتى على النقد الموضوعى ، أو النقد الموضوعى على النقد الذاتى ، ليست من المسائل التى فرغ منها النقاد وانتهوا فيها إلى رأى قاطع ، ولا نستطيع اليوم مع تقدم النقد واستعانته بنتائج بحوث العلوم النفسية والاجتماعية والبحوث التاريخية واللغوية أن نقول إن النقد قد أصبح علماً له أصوله الثابتة وقواعده الأكيدة وموازينه التى لا تخطئ ومعاييره التى اقترنت بالدقة المتناهية . ولا نزال إلى اليوم نعتمد ، فى النقد ، على الذوق المهذب المصقول إلى جانب الاستعانة بالقواعد والأصول النقدية والموازين البلاغية . وعندى أن النقد مثل كتابة التاريخ يمكن أن نفيد منه كثيرا من اتباع المناهج العلمية ، ولكن الاستفادة من المعلومات العلمية لم تجعل التاريخ مع ذلك علما مثل الفلك والكيمياء وسائر العلوم الطبيعية ، ويمكن أن يقال مثل ذلك عن النقد الأدبى .

فالعنصر الذاتى يلعب دوراً كبيراً فى النقد وإصدار الأحكام ، وكثيراً من الكتاب والشعراء العبقريين ورجال الفنون الأعلياء لم يكونوا نقادا منصفين مجيدين لأن النزعة الذاتية تغلبت فيهم على النزعة الموضوعية ، وأرجح أن السبب فى ذلك هو أن العبقريين الممتازين الذى رزقوا قدراً موفوراً من الطاقة والقدرة على الابتكار والتجديد ، يعيشون عادة فى عوالم الخيال الهائلة التى يخلقونها ويشغلون بمثلهم العليا الخاصة فلا يتسع وقتهم لكشف عوالم الغير والضرب فى نواحيها وخاصة حينما تكون عوالم هذا الغير غير ملائمة لأمزجتهم ولا متجاوبة مع منازعهم واتجاهاتهم ، وهذا ما يفسر لنا فى كثير من المواقف سوء الفهم وضعف التقدير والظلم البين فى كثير من أحكام كبار المؤلفين ، والمشاهد فى الغالب ، أن العبقرية تقترن بشىء من العنف واللجاجة

والاندفاع ، وقد كان « جيتى » كبير شعراء الألمان ممن جمعوا بين العبقرية المتجة والإحاطة الشاملة والقدرة على إصدار الأحكام المعتدلة المقبولة ، ولكنه كان فى هذه الناحية فذا قليل النظر ، وفضلا عن ذلك فإن الملكة الناقدة تستلزم نوعا من التواضع والاتزان والحب والتقدير لأعمال الآخرين وجهودهم ، والعبقريون فى العادة غير قابلين لذلك لأنهم مستغرقون على الدوام فى تفكيراتهم ، مشغولون بمبتكراتهم ، وينجد العبقرى فى ذلك ويعينه على احتمال مشقاته ، فرط ثقته بنفسه ، واعتزازه بقدراته ، واعتماده على أصالته ، وصدق حدسه ، وقوة حسه ، فكيف ينتظر منه وهذه حالته أن يعتدل ويتواضع ويلين ويترفق ويكون كأنه آس يجس عليلا كما يقول المتنبى فى وصفه للأسد وهو يطأ الثرى مترفقاً من تيه ؟

وهناك كراهة الجديد بوجه عام ، وهى ناحية من نواحى الضعف والقصور ملازمة لطبيعة الإنسان ، وليس من السهل فى أغلب الأوقات التخلص منها ، وكل جيل من الأجيال الإنسانية المتعاقبة يخلق البيئة الفكرية والعاطفية الملائمة لأحواله ومشكلاته ، وله مقاييسه وموازينه وتقديره واعتباراته . ، والجيل التالى ينتقل عادة إلى الناحية المعارضة لاتجاه الجيل السالف .

ولقد قال الكاتب الروسى الكبير « تولستوى » عن مؤلفات شكسبير وجيتى ، وهما قمتان عاليتان من قمم الآداب العالمية « لقد قرأت مؤلفاتهما من الغلاف إلى الغلاف ثلاث مرات ، ولم أستطع أن أفهم من أين جاءتهما الشهرة » وهو حكم يبدو غريباً ، ولكن الذى يعرف اتجاهات تولستوى الأخلاقية ومنازعه الأدبية يراه ملائما لشخصيته متجاوباً مع اتجاه تفكيره ، وطبيعة نظرته إلى الحياة ، وتقويمه للأشياء ، ومن هذا القبيل فى الأدب العربى تقدير الشاعر العبقرى الكبير ابن الرومى لشعر البحترى ، وهو من أشعر شعراء الأدب العربى ، وربما

كان يفوقهم جميعاً من ناحية جمال الصياغة وإشراق الديباجة ولكن ابن الرومى يقول فيه ضمن قصيدته القاسية فى هجائه .

قبحا لأشياء يأتى البحترى بها
من شعره الغث بعد الكد والتعب
يعيب شعرى وما زالت بصيرته
عمياء عن كل نور ساطع اللهب

والبيت الثانى يدل على أن سبب حملته على البحترى أنه كان فى نظر ابن الرومى متهما بجريمة العيب فى شعره . وهى عند ابن الرومى دائماً – وعند أغلب الشعراء كذلك – من الجرائم الكبيرة التى لا تغتفر ،ولكنى أرى أن سبب الخلاف بين الرجلين كان أعمق من ذلك ، وهو اختلاف مثلها العليا الشعرية ، وقد كان كلاهما مستغرقاً فى طريقته ومذهبه ، والظاهر أنه لم يكن هناك سبيل إلى التفاهم بينهما فلقد كانا عبقريين !

ولقد سبق لى أن قلت فى هذا الكتاب : «النقد ناحية من نواحى الحياة الفكرية بذلت فيها الإنسانية جهـــــوداً شاقة ، ولكن هذه الجهود الضخمة لم يكن نصيبها التوفيق الدائم . فهى كثيراً ما ضلت الطريق ، وانحرفت عن الغاية المنشودة ، والذى يطيل النظر فى تاريخ النقد ويتابع مذاهبه فى العصور المختلفة وعند أغلبية النقاد قمين بأن يلحظ كثرة ما شاع فيه من ضلالات وأوهام وآراء خاطئة وأحكام فاسدة ، ويعتقد بعد ذلك أن من واجب النقاد أن يأخذوا أنفسهم بشىء من التواضع والاعتدال . ويقللوا من الزهو والاستعلاء ، والتحدث بالنغمة العالية واللهجة الحاسمة . وألا يتكلفوا أن يقفوا من الكتاب والشعراء موقف المرشدين والملهمين المدلولين على الصواب المعصومين من الخطأ ، وحقيقة أن النقد فى العصر الحديث يتزود بأسلحة كثيرة

من علم النفس وفلسفة الجمال وعلم الاجتماع والتاريخ ، ولكن النقد بعد كل شيء أو قبل كل شيء مرده إلى الذوق والبصيرة ، والناقد كالشاعر يولد ولا يصنع » .

وهناك مسائل كثيرة قد تفسد على الناقد أمره وتبعده عن الجادة ، منها التحيز أو التعصب والنزوات الشخصية والمصلحة الذاتية ، والنجاح الذى يبهر أبصار النقاد فى بعض الأحيان قد يكون سببه استجابة الكاتب لنزعة اجتماعية طارئة أو اتجاه عارض لا عبقرية ممتازة .

ولقد حاولت فى الفصول التى كتبتها فى النقد أن أكون موضوعيا جهد الطاقة وأن أتخلص ما وسعنى الإمكان من المآرب الذاتية وأسمو فوق نزعات الحب والكراهية ، ولكننى كنت أعلم فى الوقت نفسه أن توفيقى فى تحرى هذا المسلك لابد أن يكون محدودا بحدود قدرتى الذاتية ومزاجى الشخصى ، ولذلك كنت أتحرى الاعتدال وألتزام القصد وأقدر أن أحكامى عرضة للمراجعة والنقض ، وأن ذوقى ليس هو المرجع الأخير ، وأن الأحكام قد تتناقض ، وأن الأذواق قد تختلف ، وغاية ما يطلب منى باعتبارى ناقداً أن أكون أمينا فى تقرير ما يصح أن أسميه أفكارى أو انطباعاتى ، وهذا هو مذهبى فى النقد إن صح أن لى مذهبا .